# رحلة المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح

## – دراسة مقارنة –

د.علوي مصطفى
قسم العلوم الإنسانية
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
جامعة طاهري محمد–بشار–

***Abstract*:**
**The trip of Hadj Abdullah bin Sabah of Hejaz is considered as one of the important Andalusian trips so its owner carried it at the time when the Andalusia lurks by Christians in order to recover from the hands of the Muslims, but the Kingdom of Granada remained then, which knocked out his journey for Hajj, without mentioning his time carefully, but the events contained in the journey of ibn Sabah made Dr. Mohamed benshrifa investigator estimated the period of the flight in the second half of the eighth century Ah. It seems that Mohamed benshrifa.'s annotation to Ibn Sabah's flight faced scientific critic by Dr. Gomaa Sheikh.**

تعتبر كُتب الرحلات من المصادر التاريخية الهامة، إذ نجد الكثير منها يحوي مادة علمية دسمة تزود الطُلاب و الباحثين بمعلومات في مختلف الميادين، فنجد أصحابها يعتمدون على استقاء المعلومات و الحقائق من الواقع الحي والأحداث التي عايشوها خلال رحلاتهم، ومن بين هؤلاء الرحّالة المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح.فمن هو ابن الصباح ؟و أين تكمن أهمية رحلته و فوائدها ؟

استطاع د.محمد بنشريفة أن يحقق رحلة الحاج عبد الله بن الصباح تحت عنوان «أنساب الأخبار و تذكرة الأخيار» ، إذ صدرت عن دار أبي رقراق للطباعة بالرباط في طبعتها الأولى، سنة2008، لكن هذا التحقيق لم يسلم من انتقادات علمية وجهها له د. جمعة شيخة و هو أستاذ بكلية الآداب بتونس، وصدر هذا النقد في مجلة دراسات أندلسية في عددها الخاص 45 – 46 تحت عنوان:الحاج عبد الله بن الصّبّاح الأندلسي نسبة الأخبار و تذكرة الأخيار(رحلة حجازية).

وعن تحقيق د.محمد بنشريفة لرحلة الحاج عبد الله بن الصباح يقول د.جمعة شيخة:«و لئن حاز العلاّمة بنشريفة دائما قصب السّبق و التّحقيق فقد كبا به الجواد في هذا العمل و ظهر – إن قام هو فعلا بتحقيق هذه الرّحلة – بمظهر المبتدئ و من لا تجربة له في تحقيق النصوص التّراثية.و السّبب في ذلك هو التسرّع في نشر الرّحلة قبل غيره ممّن

اكتشفها و قضى مدّة في دراسة محتواها، و العجلة في البحث العلمي– و خاصة في تحقيق النصوص– مدعاة للوقوع في كثير من المطبّات و الهفوات...» [1]، و هذا لا ينتقص من الجهد العلمي الذي بذله د.محمد بنشريفة كون أنه لا يخلو أحيانا أي بحث علمي من بعض النقائص و الثغرات العلمية، و يبدو أن ما ذكره د.جمعة شيخة من ملاحظات ما هو إلا دعم علمي و في نفس الوقت تعبير عن وجهة نظر علمية نحو منهجية تحقيق التراث العربي و الإسلامي المخطوط.

**1– الحاج المدجّن عبد الله بن الصباح**

**أ– مولده و نشأته:**

لم يكن القلصادي آخر أندلسي قام بمناسك الحج، فقد جاء بعده رجل أندلسي من المدجنين الذين أخذت اللغة العربية تغيب عنهم، و أخذوا يشعرون بأنهم في طريق نسيان أو ترك دينهم، و هكذا نجد رحلته غريبة و عجيبة و طويلة لا نعرف عن صاحبها إلا أنه الحاج عبد الله بن الصباح الذي أكد أنه يمني الأصل من ذرية أبرهة بن الصباح [2]، لم نقف على أي ذكر له في المصادر المظان و من حسن الحظ أن الرحلة تشتمل إشارات وردت في ثناياها تفيد في التعرف على صاحبها، و هو فيما يبدو وُلد و نشأ في مدينة شاطبة [3]التي كان قد استولى عليها و على مدن شرق الأندلس خايمي الأول[4]في منتصف القرن 7 هـ/13 م، و يذكر المؤرخون أن دخول خايمي الأول إلى شاطبة وقع 644 هـ/1256 م[5]

أكثر ابن الصباح من الفخر بنسبه اليمني و تحدث عن انتشار هذا النسب في مشارق الأرض و مغاربها، و من المعروف أن هذا النسب كان سائداً في شرق الأندلس عامة و في شاطبة خاصة، إذ يظهر من الموجدين في كتب التراجم أن معظمهم من أصول يمنية [6]، و لعل مما يؤكد انتساب صاحب الرحلة إلى شاطبة، أنه شبَّه بها بعض المدن التي زارها، كقوله عن القدس:«و مدينة القدس مدينة منيعة على مثال مدينة شاطبة في كبرها» [7]و هي مقارنة قد لا تكون إلا لشخص رأهما أو عاش بهما قسط من الوقت.و قد استدل محمد بنشريفة – مُحقق الرحلة – على أن ابن الصباح من شاطبة بما يلي[8]:

– تشبيهه في رحلته لتلمسان و مدينة القدس لشاطبة.

– كان صاحب الرحلة يحمل خلال رحلته نقود من الأندلس و استعمل في مكان من رحلته كلمة فلرين و هي كلمة إسبانية (***Florin***) و في تكملة المعاجم لدوزي ( ***Florin de Aragon***) أي أنها عملة أرغونية قديمة.

– كان ابن الصباح يعرف اللغة القطلانية لم يعرفها نصارى القسطنطينية.

– حفظه لقصيدتي الإمام الشاطبي و تعريفه به و تنويهه ببركة هذا الشيخ المبارك و بقصيدته.

قال ابن الصباح:«وطنت من الأقاليم السبعة خمسة أقاليم فلم أر بعد الشام أطيب من جزيرة إصبانية(إسبانية) في كثرة الإمكان مثل إشبيلية و قرطبة و جيان و الكرس و مرسية و وادي رقوط.و نولي مع كربيلان و مدينة بلنسية مع

شاطبة و نظر قنذية مع دانية و سرقسطة و طرطوشة إلى تركونة.»[9]، فمسقط رأس ابن الصباح شاطبة وُلد و نشأ بها، و قد يكون عاش بأقاليم الأندلس بدافع الرغبة و الميل إلى التِّرحال.

رجّح د.جمعة شيخة أن ابن الصباح من شرقي الأندلس دون أن يحدد المكان بدقة، لأنه(ابن الصباح) كان يتكلم باللغة الكتلانيّة و عادة ما كان يذكر هذه المنطقة و يشبهها ببعض مدن الشرق.و تاريخيا سقط شرقيّ الأندلس تحت نفوذ التّاج الأرغوني و بقي فيه أغلب سكانه من المسلمين إلى سنة 1118 هـ/ 1607 م و هو تاريخ صدور مرسوم الطّرد النهائي لهم من إسبانيا.فابن الصبّاح عندما خرج من وطنه الأندلسي كان مدجّنا[10]

ب– تعليمه و شيوخه:

نعث د.محمد بنشريفة–مُحقق الرحلة– الحاج عبد الله بن الصباح بالمدجَّن من خلال إشارات متعددة إليه في الرحلة يقول في ختامها:«و أعلم أن بلادنا المدجلة[المدجَّنة]من عمائر الأندلس لا فيهم شيخ تعلم من شيخ إلا من النسخ و الكتب و هي صماء بكماء» [11]و هي صورة عكست الأوضاع السيئة التي كان يعيشها المسلمون في الأندلس و الصعوبات و العراقيل التي كانت تعترضهم في تحصيلهم العلمي بالأندلس في ذلك الوقت، نظراً لضغط النصارى و المراقبة الصارمة لأحوال المسلمين.

تحدث ابن الصباح عن الأحوال السياسية المضطربة بالأندلس و عن مملكة غرناطة التي كانت قائمة في وقته بقوله:«فلما جئت مُلك الملك الأحمر الحميري و هو ملك الأندلس اليوم في زماننا و جئت مدينة غرناطة و هي كرسي ملكه»[12]، و أشار إلى بعض الوقائع كانت بين الغرناطيين و القشتاليين بقوله:«كم من وقعة نصروا فيها الأعداء و كفى بوقعة فجّ خين على زماننا و هذا دليل الخير و فضيلة على ساير البلاد لما جرى فيها بين الفئة الكثيرة من الروم و الفئة القليلة من المسلمين...» [13] .

ج– رحلته:

لم نتمكن من معرفة تاريخ الرحلة بالضبط على الرغم من تتبع غضونها عبر المراحل التي قطعها الرحَّالة انطلاقاً من حديثه عن الأندلس و ملك بني الأحمر، و مروراً بسبتة و فاس و مراكش أيام المرينين، و تلمسان أيام بني عبد الواد الزيانيين، و تونس أيام بني حفص، و مصر أيام بقية المماليك [14] ، و هي رحلة مصنفة ضمن الرحلات الحجازية الأندلسية.

د– منهجه:

اعتمد ابن الصباح في تدوين أحداث رحلته على المنهج السردي مثيل سابقيه من الرحَّالة المغاربة و الأندلسيين،

و لجأ في رحلة إلى وصف الأماكن و الأقاليم و المجتمعات التي مرَّ بها.و كان أيضا يُعنى بالرسوم التي تقرب الصورة للذين لم يسعفهم الحظ بالوصول إلى مكة المكرمة أو الذين لم يدركوا الوصول إلى الكعبة المشرفة فظلوا شاردين تائهين[15]

هـ – أسلوبه:

يتجلى الأسلوب الحكائي و السمة العامية في بعض العبارات التي استعملها صاحب الرحلة كقوله في آخر حديثه عن مدينة فاس: «عاما كاملا ما نبلغ وصفها»[16]و قوله عن النيل:«و لو نصف هذا النيل و عجائبه مثل عمر نوح ما نبلغ وصف عجائبه»[17]و قوله أيضا عن مصر:«لو نصف مصر و ما فيها من الفضل و العجائب ما نبلغ ربع الشيء» [18] و قوله في وصف الحرم المكي:«لو نصف فضائل هذا البيت طول العمر ما نبلغ وصفه»[19]و قوله في آخر وصف المدينة المنورة:«لو نصف هذه المدينة مقدار عمر نوح صاحب السفينة ما نبلغ وصف معجزة فضلها و كرامتها عند الله» [20]و قوله في حديثه عن بني هلال:«لو نصف بني هلال و كرمهم و جودهم و فضائلهم ألف ألف عام لم نبلغ آخر الوصف»[21]، و قد استخدم ابن الصباح أسلوب بسيط عكس مستواه الثقافي و تحصيله العلمي.

و من العبارات التي وردت و تكررت في رحلة ابن الصباح عند وصفه مدن و بلدان عديدة منها بجاية و بلاد تهامة و البصرة «لا يقدر عليها فارس و لا حارس» [22]و كقوله كذلك في أكثر من مدينة«كافية بنفسها عن غيرها»[23]و يبدو أن نص الرحلة الذي يتحدث أحياناً عن ابن الصباح بقوله:رحمه الله، مكتوب من طرف موريسكي ثان، و لهذا يُعتقد أن الرحلة عملت فيها يدان اثنتان:أولاهما يد الرحّالة ابن الصباح الذي قام بالرحلة، ثم أتى بعده موريسكي نسخ الرحلة...تصرف فيها حسبما تجدد من أحداث في القرن العاشر الهجري.و مما يلاحظ أن أسلوب الرحلة كان الأسلوب الذي يوجد في أغلب المخطوطات الموريسكية الألخميادية [24]، لكن ابن الصباح أمد القارئ بمعلومات ذات أهمية تاريخية و اجتماعية صورتها أحداث رحلته.

و– مصادره:

يوجد في الرحلة ما يدل على وقوف ابن الصباح على بعض المراجع التاريخية و الجغرافية و الفقهية و غيرها[25]

و جاء فيها عند الكلام عن إقليم الأندلس:«و هو عند أصحاب التواريخ مثل المسعودي و الحضرمي و أصحاب الجغرافية لهارون الرشيد الصقع الصغير من الأقاليم»[26]و الحضرمي – على ما يبدو– هو عبد الرحمن بن خلدون و في مقدمته كما في مروج الذهب كلام على الأقاليم السبعة، و يبدو أن المقدمة ظهرت و عرفت في حياة مؤلفها و ابن الصباح صاحب الرحلة عاش فيما قُدر في آخر القرن الثامن و قد يكون أدرك القرن التاسع، أما قوله و أصحاب الجغرافية لهارون الرشيد فيقصد بهم سبعون رجلا من فلاسفة العراق وضعوا جغرافية للمأمون بن هارون الرشيد حسبما ذكره الزهري في كتاب الجعرافية[27].

صرَّح ابن الصباح في رحلته أنه قرأ كتب هؤلاء و غيرهم وقال:«قرأت كتب المؤرخين و أولي الألباب مثل وهب بن منيه و الحضرمي و ابن الجزار و المسعودي في الكتاب الكبير من مروج الذهب و جغرافية هارون الرشيد العباسي و غيرها من كتب الأنساب» [28]و الحضرمي كما ذكرنا سابقا هو ابن خلدون و أما ابن الجزار فهو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم القيرواني المتوفى سنة 395 هـ و لعل صاحب الرحلة يشير إلى كتابه عجائب البلدان في الجغرافية أو إلى كتابه المغازي[29]و قد تكرر عند ابن الصباح صاحب الرحلة مثل قوله:«قرأت في كتاب تيجان الملوك» [30]و كتاب التيجان هذا لابن هشام صاحب السيرة[31]التي اشتهرت باسمه و هي مصدر مهماً في السنة النبوية.

ز – وفاته:

صعب على المؤرخين ضبط تاريخ صاحب الرحلة، لكن ابن الصباح أشار إلى كبر سنه أثناء كتابة رحلته عندما قال:«و أعلم أن كاتب هذا الكتاب الحاج المذكور هو شيخ كبير من أعمار الستين إلى السبعين كتبه بالأمرية من ضعف البصر...» [32]، و هي عبارات توضح أن صاحب الرحلة كان مُسناً في نهاية عمره، لذا قد تكون وفاته بعد رحلته هذه.

يقول د.جمعة شيخة:«بالنسبة إلى وفاة المؤلف بوهران نرى أن د.بنشريفة تسرّع عندما ذكر أن ابن الصباح قضى بقية حياته في وهران بعد الرجوع من رحلته، و فيها أملى رحلته...و هذا يصعب قبوله لأن ابن الصباح دخل إلى وهران و بقي فيها مريضا لمدة سنتين و هو في طريق الذّهاب فاعتبرها الراوي بسبب طول الإقامة وطنا له عن طريق المجاز لا الحقيقة، و لا نجد في الرّحلة ما يشير إلى رجوعه إليها، فقد أنهى المؤلف رحلته بوصف العراق عامة و مدينة بغداد بصفة خاصة، و أكّد في خاتمة تحريره لرحلته أنّه كتبها لإخوانه المدجّنين الذين بقوا في وطنهم الأندلس تحت الذمّة، و واجب الأخوة الدينية يفرض عليه أن يقدّم خدمات لهذه الأقلية.» [33] .

2– مخطوط الرحلة :

توجد نسخة وحيدة من رحلة المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح محفوظة في دار الكتب الوطنية بتونس تحت عدد 2295، المسطرة 18، المقاس 15 X 20، ورقاته 273 ورقة، مكتوبة بالخط مغربي جميل و واضح في الغالب، مشكول بالأحمر، و فيه تصحيحات في النص و أحيانا في الطرّة بنفس اللون.لم يُذكر الناسخ و لا تاريخ النسخ. [34]و قد اكتشف رحلة ابن الصباح د.أحمد الشتيوي و استخدمها في أطروحته المعنونة بـ:«مظاهر الحضارة من خلال رحلات المغاربة و الأندلسيين من القرن 12/6 إلى القرن 18/12» [35] .

3 – عنوان الرّحلة:ذكر د.جمعة شيخة أن عنوان الرّحلة ورد فيه اختلاف، فقد ذكره د.الشّتيوي «منشاب الأخبار و تذكرة الأخيار» بينما جعله الدكتور بنشريفة في تحقيقه «أنساب الأخبار و تذكرة الأخيار»و قال:«كلمة أنساب وردت في المخطوط (نساب) و هي كلمة إما صيغة عامية أو سقط منها الألف.و قد قرأها د.جمعة شيخة (منشاب)، و لا معنى لها.و في هذه القولة تسرّع و تجنّ لأن قراءة «منشاب» هي قراءة د. الشتيوي و ليست قراءة د.جمعة شيخة [36] و

يضيف د. جمعة شيخة قائلاً:«و من جهة أخرى يحرّم د.بنشريفة على غيره ما يحلّله لنفسه.فقد أضاف همزة لكلمة «نساب» بينما أضاف د.الشّتيوي ميما و غيّر السّين شيئا، و هو اجتهاد نراه أقرب إلى الصّواب و لو تأنّى د.بنشريفة و رجع إلى كتب اللغة لوجد أن «أنساب» جمع نسب و هو القرابة.و لا معنى للعنوان بهذه القراءة.أما كلمة «مِنْشاب» فمِن نشب يَنشب نشبا و نشوبا الشيء في الشيء علق، و الصيغة التي جاءت عليها الكلمة صيغة مبالغة «مِفْعَال».»[37] و بعد الإطلاع على الوجه الأمامي من الرحلة المخطوط تبين أنه كُتب عليها هذه رحلة الحاج الصَّبَّاح، رحلة الإصْبَحِيُّ الأندلسي المسماة نساب الأخبار و تذكرة الأخيار.

**4 – مسار الرحلة:**

بدأ المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح رحلته بوصف مملكة بني الأحمر و عاصمتها غرناطة و خرج منها متوجها إلى المغرب دون أن يذكر التاريخ و قطع بحر الزقاق إلى مدينة سبتة التي مدح أهلها بالكرم، ثم زار مدينة مراكش و شبهها ببغداد و قال إنها كانت في زمن الخلفاء الموحدين ذات عمران عظيم، أما في وقت زيارته فهي خراب و خلاء، و هذا ما لاحظه كل من ابن الخطيب و ابن بطوطة عند زيارتهما لها[38] .

انتقل ابن الصباح صاحب الرحلة من مراكش إلى فاس و وصفها بمدينة السادة و الناس، ثم انتقل إلى الكلام عن تلمسان عاصمة بني عبد الواد و بدأ بالكلام على ملوكها و لا سيما أبو تاشفين الأول [39] و وصف المدينة و خضرتها و طيب مائها و هوائها و صلحائها كأبي مدين و سيد الحلوي و تحدث عن مدارس العالم الفقيه سعيد العقباني المتوفى سنة 720 هـ[40]و انتقل في كلامه إلى وهران التي فتحدث عن خيراتها من الحبوب و اللحوم و الدهون و الفواكه و نوه بمنعتها و شجاعة رجالها و خدمة بعضهم بعضا في الغربة، و ذكر بعد ذلك الجزائر التي وصفها بأنها مدينة تجارة و خصب و رخاء، ثم ذكر أنه دخل مدينة تونس و استقر فيها ثلاثين يوما في أيام الصيف و وصفها بأنها أم مدائن المغرب، و تحدث عن المدن التابعة لها يومئذ و أولها بجاية التي وصفها بأنها دار علم و قوة في الدين و الدنيا و أهلها أهل بحر و تجارة و قناعة، لا تفتح حوانيتهم إلا بعد صلاة العصر، ثم مدينة قسنطينة المنيعة لا يقدر عليها فارس و لا حارس و هي كثيرة الرخاء، و من هذه المملكة بلد العناب[41] .

و من المدن التي وصفها بإيجاز شديد القيروان و قفصة و بعض الجهات التي كان يقطنها الخوارج الإباضيون، و وصل من طريق البر إلى طرابلس ثم واصل سيره نحو الإسكندرية و القاهرة أو مدينة مصر كما يسميها [42]و وصف النيل و كثرة المراكب البحرية و الآثار ومجالس العلم.

خرج ابن الصباح مع الركب سالكا الدرب الشامي و كان قد اكترى ناقة للوصول إلى مكة المكرمة و وصف الطريق إليها حيث سماه طريق الموت، و قد سمى من مراحل هذا الطريق أرض عجرود و وادي القباب، و مدائن صالح، و تيه بني إسرائيل، و الأزلم، و وادي عنتر و الحوراء و عيون القصب، و ينبع، و بدر، و البزوة، و خليص، و رابغ، و فيه

ميقات الإحرام، و بطن مر، ثم مكة المكرمة[43]، و قد حمد الله كثير على قطعه هذا الطريق الذي غالبا ما يهلك فيه كثير من الحجاج.

قام ابن الصباح بسرد المراحل بين مكة و المدينة و هي عنده:مكة – بطن – مدارج علي – خصاص البزوة – بدر – وادي الصفراء – وادي الغزالة – وادي العقيق – ذو الحليفة (أبيار علي) – قبا – منزلة المصري – المدينة المنورة[44] .

رحل ابن الصباح من المدينة المنورة قاصدا اليمن بلد الحميريين أجداده الذين دخلوا الأندلس، ثم رجع إلى الحجاز و حج مرة أخرى و زار المدينة و منها توجه إلى الشام قاصدا بيت المقدس، و قد مرّ بتبوك و العلا و مدائن صالح و عقبة السودان و معان و البلقاء و أريحا و الطور ثم بيت المقدس و أول ما زاره فيها مدينة الخليل، ثم انتقل بعد ذلك إلى بيت المقدس مارا ببيت لحم و انتقل إلى دمشق ثم سافر إلى حلب و أنطاكية و رجع إلى دمشق [45] فزار الجامع الأموي و تحدث عن تاريخ المدينة من حيث الأثار و العمران و الاقتصاد.

و من دمشق سافر ابن الصباح إلى ديار بكر و سمّى من مدنها ماردين و إربيل و آمد و وقف على جبل الجودي ثم نزل بلاد الأتراك العثمانيين و استقر فيها أربع سنين بمدينة برصة، بعدها قصد القسطنطينية و بلاد السرا، و خوارزم، و بلاد الخطا، وشمل القسم الأخير من رحلته العراق فتحدث فيه عن واسط و البصرة و أشار إلى ما وراء البصرة من بلاد السند و الهند[46] .

**5– نص الرحلة:**

يقول د.جمعة شيخة:«لقد قرأنا رحلة ابن الصبّاح الأندلسي بتحقيق الدكتور محمد بنشريفة بكل عناية و تدقيق و بكل أمانة و صدق حتى نستطيع أن نقيم و نقوّم في نفس الوقت هذا العمل، باعتبار أنّ المحقّق هو نصّ فريد، غريب و مفيد.و أول ملاحظة بدت لنا في هذا التحقيق هو نسبته إلى الدكتور بنشريفة لأن سمة هذا التحقيق الأولى هي التسرّع.و ما عهدنا العلاّمة بنشريفة متسرّعا فيما ألّف أو حقّق، و هو مدرسة بحالها في المجالين.و قد أوقعه هذا التسرّع في مطبّات منهجية و هفوات لغويّة و استنتاجات وهميّة و أخطاء مطبعيّة أردنا التّنصيص عليها لنبرّر وجوب إعادة تحقيق هذا النص الهام.و بهذا التسرّع ملاحظ في مقدمة المحقّق و في النصّ المحقّق معا.»[47]

و يضيف د.جمعة شيخة عن نص رحلة المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح في صفحة تصدير مجلة دراسات أندلسية في عددها 45 – 46:« إن النص الذي بين أيدينا هو نص فريد من نوعه و غريب في نفس الوقت:فخصائصه في عيوبه و قيمته في أخطائه.لذا فإن التصرّف في هذا النص عند تحقيقه – كما فعل د.بنشريفة – بالزّيادة و النّقصان دون إشارة في الهامش، و بإصلاح عيوبه، من حيث التّركيب و أخطائه من حيث اللغة، و ذلك بتحويل ألفاظه و عباراته من دارجة إلى فصحى دون تنصيص على ذلك في الهامش و في كل مرة، يُعد تجنّيا على النص و إفقاده لقيمته الأساسية

التي هي هدف الباحثين في مجال تطور اللغة، و في مجال تطور العقليات لتحسّس المستوى الثقافي الذي مرّ به الفكر الأندلسي إلى أن أفلت شمسه نهائيا مع المدجّنين و الموريسكيّين بعد سطوع نجمه لفترة قرون مع الأندلسيين.لذا رأينا أن إعادة تحقيق هذا النص حسب المنهج العلمي الصحيح واجب و محتّم خدمة لهذا الهدف النبيل حتى لا يحرم الباحثون في مجال انحدار اللغة العربية بالأندلس من فصحى راقية إلى دارجة ضحلة، و في مجال سقوط الفكر الأندلسي، من نموذج فريد من نوعه و هو رحلة ابن الصبّاح الأندلسي.»[48] .

**6 – الفهرس العام للرحلة:**

من خلال تصفحي لرحلة ابن الصباح التي حققها د.محمد بنشريفة التي تبدو بفهارس متنوعة (فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث و الآثار، فهرس الأعلام، فهرس الأماكن و البلدان) [49]، أما الفهرس العام فقد رتبته حسبما ورد في الرحلة كالأتي:

فصل في وصف جزيرة الأندلس و وطن المؤلف و موضع مسقط رأسه و تربيته و قبور والديه و أجداده من وقت فتوح الأندلس على خلافة بني أمية.

الخروج من مملكة غرناطة إلى المغرب.

إلى مدينة مراكش.

من مدينة مراكش إلى مدينة فاس.

إلى مملكة بني عبد الواد.

إلى مملكة الحفصيين.

وصف الاسكندرية و مصر.

ذكر المداين و القرى المذكورة المشهورة منها لأجل الاختصار الذي يغني عن التطويل.

الخروج إلى الحجاز.

الوصول إلى مكة المكرمة.

الخروج إلى اليمن.

في بلاد اليمامة و نجد.

الانصراف إلى المدينة المنورة.

الانصراف إلى الشام.

في بيت المقدس و مدينة الخليل.

الانصراف إلى دمشق.

إلى ديار بكر.

في بلاد الأتراك العثمانيين.

بلاد السرا و بلاد الخطا

ذكر ملوك الفرس.

إلى عراق العرب.

خاتمة.

**7 – خصائص الرحلة و أهميتها:**

تميزت رحلة ابن الصباح بخصائص متنوعة منها قوله قال ابن الصباح رحمه الله مما قد يدل على أن الرحلة كتبها غيره، كما تميزت الرحلة بأسلوب بسيط ورد فيه كثير من المفردات الأندلسية و المغربية بالعامية عكست الأحوال المتدهورة بشكل عام في أواخر عهد المسلمين بالأندلس الذي كان يعيش فيه المسلون تحت الدجّن، نظرا لاستعادة النصارى سلطانهم على كثير من أرجائه عدا غرناطة التي كانت آخر معقل للمسلمين بالأندلس.و قد استطاع د .محمد بنشريفة أن يعرض سريعا لبعض سمات رحلة ابن الصباح فيما يلي[50]:

1 –سمى ابن الصباح عمله رحلة و تكررت هذه التسمية، و سماها أحيانا تاريخا.

2 –أكثر صاحب الرحلة من التذكير بنفسه فاستعمل عبارة قال ابن الصباح أو قال الحاج ابن الصباح أو قال المؤلف ابن الصباح أو قال الشيخ المؤلف، و هي مصحوبة في الغالب بعبارة رحمه الله أو رحمه الله و رضي عنه و يفهم من ذلك أن هذه النسخة الخطية من الرحلة كتبت بعد وفاة مؤلفها.

3 –يفهم من كلام صاحب الرحلة أن النسخة الأم خرجت في مائة ورقة و أنه بناها على الاختصار، لأن ذلك لو كان لو كان على التطويل لاحتجنا – كما يقول – إلى جملة أسفار.

4 –يؤكد صاحب الرحلة أن ما ورد فيها من وصف البلدان هو عن مشاهدة و عيان.

5 –تشبه هذه الرحلة في بنيتها العامة و أسلوبها الغالب ما يعرف بالأزليات أو الحكايات الشعبية الي يفتتح السرد فيها بعبارة قال الراوي وهي عبارة وردت كثيرا في الرحلة.

6 –يوجد في الرحلة ما يدل على وقوف صاحبها على بغض المراجع التاريخية و الجغرافية و الفقهية و غيرها.

7 –في الرحلة ما يشير إلى اطلاعه على بعض الرحلات كرحلة ابن جبير و رحلة ابن بطوطة و على بعض كتب البلدان كجعرافية الزهراوي و غيرها.

8 –كثيرا ما يؤكد صاحب الرحلة مشاهداته بالقسم.

9 –يلاحظ في الرحلة شيء من الاختلاف في طبيعة السرد فهو يتردد بين ما يقوم على الزيارة و المشاهدة و ما بعتمد على السماع و القراءة، و يلاحظ تفاوت في الأسلوب الذي يحسن أحيانا و يرتفع إلى مستوى الأساليب المقبولة و ينزل إلى مستوى الكلام العامي.

10 – يمكن القول بأن هذه الرحلة تقدم صورة للعالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري كما رآه مسلم أندلسي مدجن خرج من عالم المدجنين الضيق الذليل المهين فاكتشف عالما إسلاميا فسيحا قويا عزيزا، و في نفس الوقت أن الرحلة تمثل من جهة أخرى رأي إنسان بسيط من عامة الناس.

11 – في هذه الرحلة –كما في رحلة ابن بطوطة– ذكر لما كان يلقاه المسافر المحتاج من إطعام و إحسان و إنزال و إسكان في الزوايا و المدارس و المساجد و ذلك بفضل الأوقاف و الصدقات المحصصة للغرباء.

12 – أكثر صاحب الرحلة من فخره بالنسب الحميري اليمني و ملأ رحلته بأخبار الحميرين و الافتخار بماضيهم الأسطوري و لعله و هو المدجن الذي ذاق مرارة الذل في بلاد المدجنين كان يعوض بالاعتزاز بذلك الماضي المجيد.

الخلاصة :

كانت رحلة المدجّن الحاج عبد الله بن الصباح من الرحلات الأندلسية الحجازية الهامة، إذ صوّر فيها صاحبها أوضاع الأندلس السيئة قبل سقوطه حيث كانت مملكة غرناطة لازالت قائمة زمن رحلته، و الرحلة أيضا غنية بمعلومات قيمة أوردها صاحبها عن البلاد التي مرّ بها، منها تلك المتعلقة بتاريخ المغرب الأوسط عامة و تلمسان خاصة.و قد استطاع د.محمد بنشريفة أن يحقق الرحلة، لكن هذا التحقيق كانت له وجهة نظر علمية أخرى من طرف د.جمعة شيخة.

الهوامش :

[1]– جمعة شيخة، "الحاج عبد الله بن الصباح الأندلسي نسبة الأخبار و تذكرة الأخيار(رحلة حجازية)"، مجلة دراسات أندلسية عدد خاص 45 – 46، المطبعة المغاربية للطباعة و النشر و الإشهار الشرقية، تونس، 2012، ص ب.

[2]– عبد الهادي التازي، مكة في مائة رحلة مغربية و رحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، المدينة المنورة، ج1، 2005، ص 165.

[3]– شاطبة:مدينة جليلة بالأندلس متقنة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، و هي كريمة البقعة كثيرة الثمرة عظيمة الفائدة طيبة الهواء، و هي قريبة من جزيرة شقر، و هي حاضرة آهلة بها جامع و مسجد و فنادق و أسواق، و قد أحاط بها الواد.
ينظر: محمد بن عبد المنعم الحِمْيري الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص 337.

[4]– خايمي الأول:يأتي نسله من ألفونسو الأول دوق براجانزا ابن الغير شرعي جواو الأول ملك البرتغال وأمه هي أبنة فرناندو دوق فيسو ابن دوارتي الأول.يذكر المؤرخونأن دخول خايمي الأول إلى شاطبة وقع سنة 644 هـ/ 1256 م.
ينظر: الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 11.

[5]– المصدر نفسه، ص 11.

[6]– المصدر نفسه، ص 12.

[7]– نفسه، ص 12.

[8]– نفسه، ص ص 12– 14.

[9]– نفسه، ص 57.

[10]– جمعة شيخة، المرجع السابق،، ص ص ث – ج.

[11]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 188.

[12]– نفسه، ص 67.

[13]– نفسه، ص ص 73– 74.

[14]– عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج1، ص 165.

[15]– المرجع نفسه، ص 169.

[16]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 91.

[17]– المصدر نفسه، ص 123.

[18]– نفسه، ص 125.

[19]– نفسه، ص 143.

[20]– نفسه، ص 178.

[21]– نفسه، ص 161.

[22]– نفسه، ص 102، ص 154، ص 225.

[23]– نفسه، ص 47.

[24]– عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ج1، ص ص 165– 166.

[25]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 47.

[26]– المصدر نفسه، ص 58.

[27]– نفسه، ص 47.

ينظر كذلك:أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزُهري، كتاب الجعرافية، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر(د ت)، ص ز.

[28]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 99.

[29]– المصدر نفسه، ص 47.

[30]– نفسه، ص 234.

[31]– حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مج 1، ص 518.

[32]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 229.

[33]– جمعة شيخة، المرجع السابق، ص ج.

[34]– المرجع نفسه، ص ت.

[35]– نفسه، ص ب.

[36]– نفسه، ص خ .

[37]– نفسه، ص د.

[38]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 30.

[39]– أبو تاشفين الأول:هو أبو تاشفين عبد الرحمن ولد السلطان أبي حمو تولى من سنة 718 هـ إلى سنة 737 هـ بعد اغتيال والده.
ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر و العقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق و تعليق محمود أغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر،(تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011)، ص ص 139 – 140.

[40]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص 31.

[41]– المصدر نفسه، ص ص 32 – 33.

[42]– نفسه، ص ص 33 – 35.

[43]– نفسه، ص 36.

[44]– نفسه، ص 37.

[45]– نفسه، ص ص 37 – 38.

[46]– نفسه، ص ص 39 – 42.

[47]– جمعة شيخة، المرجع السابق، ص ت.

[48]– نفسه، ص أ.

[49]– الحاج عبد الله بن الصباح المدجّن، المصدر السابق، ص ص 277 – 310.

[50]– المصدر نفسه، ص ص 43 – 52.